

Université d'Oran 2 Mohamed Ben Ahmed
Faculté des Sciences économiques,
Commerciales et Sciences de Gestion
2021 – 2022

- **Niveau : L1** **Semestre : S1**
- **Domaine : SEGC**
- **Matière : Introduction à la sociologie 1**
- **Enseignant : BENCHAREF HOUCINE**
- **Séquence : C04 / 15-04**
- **Code de la ressource : L1_S1_SEGC_D112_C04/15**

مقياس: مدخل الى علم الاجتماع

السنة الأولى علوم اقتصادية

السداسي الأول

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد

منسقة المقياس الأستاذة: د. براس دلييلة

(2021 / 2022)

الأستاذ: توباش شكيب محاضر للمجموعات: 4+3+2+1

الأستاذ: بن شارف حسين محاضر للمجموعات:

10+9+8+7+6+5

المحاضرة الثالثة: عبد الرحمن بن خلدون

المراجع

- الغزوي، فهمي وآخرون، 2006، المدخل إلى علم الاجتماع، دار الشروق للنشر للتوزيع، عمان: الأردن. (مرجع رئيسي)
- بدوي، السيد محمد، 1981، مبادئ علم الاجتماع، ط2، دار المعارف، الإسكندرية.
- بركات، حلیم، 2000، المجتمع العربي في القرن العشرين، ط، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية.
- جدنز، انتوني، 2005، علم الاجتماع (مع مدخلات عربية)، ط4، ترجمة فايز الصياغ، مركز دراسات الوحدة العربية.
- خمش، مجد الدين، 1998، علم الاجتماع، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.
- عثمان، إبراهيم، 1999، مقدمة في علم الاجتماع، دار الشروق للنشر للتوزيع، عمان: الأردن.
- الدقس، محمد، 1996، التغير الاجتماعي بين النظرية والتطبيق، دار مجدلاوي، عمان: الأردن.

تقديم عبد الرحمن بن خلدون

ولد ابن خلدون بتونس سنة 732هـ \ 1332م، تولى مناصب سياسية هامة، ثم اعتزل السياسة ليتفرغ لكتابة مقدمته المشهورة ب"مقدمة ابن خلدون" التي هي في الأصل بمثابة تمهيد لكتابه في التاريخ الموسوم: "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الكبر" المشهور بتاريخ ابن خلدون.

أهم الأفكار الاجتماعية لابن خلدون تمحورت في نقاط أساسية والمتمثلة في اكتشافه لعلم جديد ونظريته الاجتماعية والتربوية والسكانية والدولة والعصبية وغيرها من الإسهامات الأخرى ومدى فعاليتها في دراسة واقع المجتمعات العربية الإسلامية.

أكد ابن خلدون في محاضراته على أهمية الربط بين التفكير السوسيولوجي والملاحظات التاريخية. وكان مؤمنا بالدراسة العلمية للمجتمع وبالبحث الإمبريقي وبالبحث في أسباب الظواهر الاجتماعية.

النظرية الاجتماعية عند ابن خلدون

لقد جمع ابن خلدون إذن بين التفكير النظري والأسلوب العلمي مما ساعده على تدوين نظرياته ومشاهداته، كما مكنته تنقلاته ووظائفه من تعميق معارفه وتوسيع ملاحظاته ومكنه اطلاعه على الأوضاع عن كثب من تدقيق منهجه في التفكير وأسلوبه في الكتابة. ويمكن تلخيص المقدمة في مجموعه نظريات وأسس وضعها ابن خلدون لتجعل منه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع على عكس ما يدعيه علماء الغرب أن المؤسس الحقيقي هو الفرنسي أوغست كونت ومن خلال قراءة المقدمة يمكن وضع ثلاثة مفاهيم أساسية تؤكد ذلك وهي أن ابن خلدون في مقدمته بيّن أن المجتمعات البشرية تسير وتمضي وفق قوانين محددة وهذه القوانين تسمح بقدر من التنبؤ بالمستقبل إذا ما درست وفقهت جيدا، وأن هذا العلم "علم العمران البشري" (كما أسماه) لا يتأثر بالحوادث الفردية وإنما يتأثر بالمجتمعات ككل، وأخيرا أكد ابن خلدون أن هذه القوانين يمكن تطبيقها على مجتمعات تعيش في أزمنة مختلفة بشرط أن تكون البنى واحدة في جميعها.

يمكن إجمال إسهاماته بتاريخ الفكر الاجتماعي بالنقاط التالية:

- 1) قدم دراسة تاريخية للمجتمع حيث أشار إلى أن المجتمع يمر بثلاث مراحل تاريخية متباينة وكل مرحلة حضارية متصلة بالمرحلة الحضارية التي سبقتها.
 - 2) قسم المجتمعات إلى أنواع مختلفة وفقا لدرجة تقدمها الحضاري والاقتصادي والفني فابرز نوعين من المجتمعات البشرية، الأول هو المجتمع الريفي و سماه مجتمع البدو والذي يتميز بظاهرة العصبية، أما الثاني فهو المجتمع الحضري الذي يتميز بمستوى اقتصادي عال وبدرجة كبيرة من التقدم الثقافي والصحي والعمراني..
 - 3) الحركة الاجتماعية في دورة مستمرة وتؤدي وظيفتها بشكل آلي ودائم
 - 4) الاجتماع الإنساني ضروري لان الإنسان مدني بطبعه ويسير في شرح هذه القضايا على وتيرة أرسطو والفرايبي ويؤكد على إن عدم كفاية الفرد لنفسه يدفعه إلى التعاون والاشتراك في حياة الجماعة.
 - 5) لقد كان ابن خلدون يدرس الظواهر الاجتماعية في حالتها الساكنة والمتحركة فكان يدرس الظاهرة وأجزائها ووظائفها وما إلى ذلك من مسائل الدراسة الستاتيكية (الساكنة) ويدرس في نفس الوقت تطورها والقوانين التي تخضع لها في هذا التطور.
- اهتم ابن خلدون اهتماما ملموسا بنظم اجتماعية عديدة كالنظام السياسي والنظام الاقتصادي والعلاقات المتبادلة بينهما، كما اهتم بالمقارنة بين المجتمعات البدائية والحديثة. حيث تحليلاته جاءت حول الأبعاد الاقتصادية، الثقافية والسياسية للمجتمع من خلال مشروع تحليل علمي للمجتمعات.

منهج البحث العلمي عن ابن خلدون

أما عن منهج ابن خلدون، فينطلق ابن خلدون من تناول المجتمع الإنساني من مفهومه العام وليس من مجتمع بذاته، ويتضمن هذا إيمانه بأن هناك قوانين عامة تشمل جميع المجتمعات الإنسانية ويرتكز المنهج الخلدوني على أن كل الظواهر الاجتماعية ترتبط ببعضها البعض، فكل ظاهرة لها سبب وهي في ذات الوقت سبب للظاهرة التي تليها. لذلك كان مفهوم العمران البشري عنده يشمل كل الظواهر سواء كانت سكانية أو ديموغرافية اجتماعية، سياسية، اقتصادية أو ثقافية. وقد تجسد هذا المنهج بجملة من القواعد:

(1) الشك والتمحيص

(2) قانون الأشياء من خلال التنقيب ثم التمهيص والتقيد العلمي فاستقراء الواقع وبالتالي كشف القوانين.

(3) الواقعية الاجتماعية أي النظر إلى الحقائق الاجتماعية والوجود الاجتماعي كما هو مشخص في مواده

(4) القياس والاستدلال للبرهنة على قوانينه العمرانية

(5) السبر والتقسيم كمحور للكشف الاجتماعي عند ابن خلدون في المجتمع العمراني والتعميم وأصوله وكيفية الانتقال من الجزء إلى الكل أي من الحوادث المشاهدة الأخرى التي لم تشاهد.

نظرية بن خلدون حول التحول الديمغرافي

- يقدم لنا عبد الرحمن ابن خلدون المفكر الاجتماعي العربي، في غضون القرن الرابع عشر الميلادي، بعض الأفكار التي أثرت فيما بعد في تطوير الاهتمام بدراسة السكان حيث يذهب إلى أن المجتمعات تمر خلال مراحل تطويرية محددة تؤثر على عدد المواليد والوفيات في كل مرحلة. إذ يشهد المجتمع في المرحلة الأولى من تطوره زيادة معدلات المواليد ونقص في معدلات الوفيات، بما يؤثر على نمو السكان ويزيد عددهم. وعندما ينتقل المجتمع إلى المرحلة الأخيرة من تطوره، يشهد ظروفًا ديموغرافية مخالفة تمامًا، حيث ينخفض فيها معدل الخصوبة والمواليد، ويرتفع معدل الوفيات...
- إن هذه الملاحظات أو القوانين التي طرحها ابن خلدون تشكل نظرية سكانية أو ديموغرافية لها مصداقيتها على واقع المجتمعات بصفة عامة والعربية والإسلامية بصفة خاصة لأنه تطرق إلى ما نسميه حاليًا بالتحول الديموغرافي والتغير الديموغرافي ومختلف الظواهر السكانية من حجم السكان ونموهم التي أصبح يهتم بها كل من علم اجتماع السكان والديموغرافيا أو علم السكان.
- يوضح ابن خلدون تأثير كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع على مستوى الخصوبة والوفيات حيث يقول: إن الخصوبة العالية في المرحلة الأولى عائدة إلى نشاط السكان وثقتهم ومقدرتهم العالية، أما في المرحلة الأخيرة فتزداد نسبة الوفيات نتيجة الأوبئة والثورات والاضطرابات مما يقلل من نشاط السكان، وبالتالي ينخفض نسلهم وقدرتهم على الإنجاب والتناسل.
- لقد تحدث ابن خلدون في مقدمته الشهيرة عن القوانين التي يسير عليها التزايد في النوع الإنساني، وبذلك سبق "مالتس" في نظريته التي اشتهر بها، وهي نظرية "تزايد السكان". ويمكن القول بهذا السياق أن ابن خلدون قد ربط تطور الاقتصاد وازدهاره بكمية عدد السكان، أما قتلهم فاعتبرها سببًا مباشرًا يؤدي إلى تدهور الاقتصاد.
- لعل أهم أراء ابن خلدون في هذا المجال، أن المجتمعات السكانية المستقرة تحظى بارتفاع في مستوى معيشة أفرادها، وذلك لان كبر الحجم السكاني يسمح بتقسيم العمل بشكل أكثر تخصصًا، ويساعد على استثمار أكثر فعالية وجدوى للموارد، ويوفر كذلك قاعدة لإقامة امن اقتصادي وسياسي واجتماعي أفضل.

التغير الاجتماعي عند ابن خلدون

- يعتقد ابن خلدون أن التغير الاجتماعي سمة أساسية مستمرة، فالجماعة الإنسانية لا تبقى على حالها و لهذا وضع نموذجا لبداية الجماعة. ويرى ابن خلدون أن البداوة تمثل نموذج الجماعة بداية، تتحول تدريجيا لتصل إلى النموذج الحضري، "فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما..." ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه... أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها... وقد تبين أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والأمصار وأصل لها".
- بالتالي يتحول النموذج البدوي تدريجيا بتبدل نحل أو شكل العيش ليصل أو يندمج في النهاية في النموذج الحضري. ولأن مبدأ التطور يمثل قانون الطبيعة، الذي ينطبق على كل أشكال الحياة، فإنه يشمل أيضا التطور الاجتماعي.
- تتضمن محاولة ابن خلدون في تناوله لعملية التطور الاجتماعي جانبين ، يشير الجانب الأول إلى أن التغير عملية طبيعية مستمرة، أما الجانب الثاني فيشير إلى التباين في عملية التطور بين الجماعات لاختلاف ظروفها، يشمل هذا التباين الاختلاف في درجة سرعة التغير من جهة واتجاهه من جهة أخرى.
- للتغير الاجتماعي لدى ابن خلدون أسباب خارجية وأخرى داخلية، تشمل الأسباب الخارجية علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، مواردها، جغرافيتها والمناخ، وعلاقة الجماعة بغيرها من الجماعات سواء كان هذا بالاتصال، أو التحالف أو الاتحاد، أو التبدل في الروابط الاجتماعية وضعف العصبية التي يمكن أن تعتبر نتيجة وسبب.
- هذه النظرية أساسية ويجب ربطها بجانبين من فكره : وضع أو إقامة النماذج الاجتماعية (التنظيم الأسري، القبائل و الأمم)، التكنولوجيا، العلوم و الأديان وهذه النظرية تتعلق بالنظام الاجتماعي في كليته. فالمدينة ليست مستقلة عن البداية أو العالم البدوي. فهي تستمد منه القوة العسكرية والسلطة بمعنى الوسائل التي تسمح لها بالحفاظ على النظام الداخلي والاحتماء من التهجمات والأخطار الخارجية، حماية الطرقات وتنظيم الشبكات التجارية ذات السلم الكبير.
- يصف ابن خلدون شكل للحركة الاجتماعية أي الانتقال من حالة قديمة إلى حالة جديدة حيث يبين تجديد السكان الحضريين وتركيبية النظام. ومنه فإن علم العمران البشري والاجتماع الإنساني علم شامل يتضمن بحث التشكيلات الاجتماعية وما تشمله من نشاطات وتنظيمات اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية بالإضافة إلى تطور المجتمعات وأسباب تغيرها.

نظرية الدولة و العصبية عند ابن خلدون

• يخص ابن خلدون الفصل الثالث من المقدمة للدول والملك والخلافة ومراتبها وأسباب وكيفية نشوئها وسقوطها، مؤكداً أن الدعامة الأساسية للحكم تكمن في العصبية. وقد اهتم بالعصبية اهتماماً بالغاً إلى درجة أنه ربط كل الأحداث الهامة والتغيرات الجذرية التي تطرأ على العمران البدوي أو العمران الحضري بوجود أو فقدان العصبية. كما أنها في رأيه المحور الأساسي في حياة الدول والممالك. كما جاء في الفصل الأول من مقدمته في أن الملك والدولة العامة إنما يحصلان بالقبيلة والعصبية.

• فالعصبية نزعة طبيعية في البشر، ذلك أنها تتولد من النسب. وإذا كانت العصبية تقوم عند ابن خلدون على أساس صلة الرحم، والنسب، وأيضا على أساس الولاء والحلف، وكان الولاء والحلف يعبران عن شكل من أشكال (التفاهم) و(الاتفاق)، فإنه يمكن القول بأن العصبية تقوم أيضا على أساس من التعاقد، على الأقل في جزء من مكوناتها، وهو الولاء والحلف. وفي هذا المعنى، يمكن التأكيد، على أن مفهوم (التعاقد) عند ابن خلدون، يستند على العصبية، في أساسين:

• (1) في أساس العصبية باعتبارها تعبر عن شكل من أشكال التجمع، المعبر بدوره عن ضرب من الاتفاق بين الأفراد.

• (2) في أساس الولاء والحلف، باعتبارهما يعبران عن معنى من معاني الاتفاق، أيضا.

يقرر ابن خلدون أن للدولة أعمارا طبيعية كما للأشخاص، وأن عمر الدولة لا يتعدى ثلاثة أجيال وفي نفس السياق يبين هذه الأجيال ويشرحها: “...إن عمر الدولة لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال:

(1) لأن الجيل الأول جيل البداوة الذي يتميز بالخشونة و البسالة.

(2) الجيل الثاني هو جيل الحضارة الذي يتميز بالترف ومظاهر الدعة. تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة

(3) الجيل الثالث يكون هرم الدولة و تخلفها، الجيل فينسون عهد البداوة... و يفقدون حلاوة العز والعصبية... و يبلغ فيه الترف حدا يصبح الناس عالة على الدولة و يفقدون عصبيتهم أي أن الجيل الثالث هو مؤشر لزوال الدولة وانقراضها من وجهة نظر ابن خلدون.

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

الهوامش :

- 1- عارف دليلة: الفكر والوقائع الاقتصادية، منشورات جامعة دمشق .
- 2- عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة ، دار القلم بيروت، 1976.
- 3- راشد البراوي: تطور الفكر الاقتصادي، دار النهضة العربية، 1976 .
- 4- ربيع محمود الروبي: المقدمة - مرجع سابق ص .
- 5- شوقي أحمد دنيا: ابن خلدون مؤسس علم الإقتصاد -دار معاذ للنشر والتوزيع
1993 ص 5 .

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

1 : مفهوم القيمة وأنواعها ومحدداتها عند ابن خلدون

إننا نعتقد بأن تحديد قيمة سلعة ما يتوقف على كل العناصر والعوامل المباشرة وغير المباشرة المؤثرة في السلعة والمتأثرة بها. ومن هذا المنطلق الكبير سنحاول توضيح أو إثبات إلى أي مدى توصل فكر ابن خلدون معرفة هذه المحددات التي شكلت تناقضا كبيرا ومناقشة واسعة عند رواد الفكر الاقتصادي الحديث. وذلك فيما يلي :

1.1 : مفهوم القيمة عند ابن خلدون

لقد تعددت النظريات حول مفهوم القيمة، فقد كان مفهوم القيمة وما زال يشغل علماء الاقتصاد، وكلما تطور الفكر الاقتصادي كلما برزت بعض الأشياء الغائبة عن مفهوم القيمة، وإذا كان ابن خلدون قد عاش في بيئة وزمن يبعد بأكثر من أربعة قرون عن هذه المناقشات فكيف كان مفهومه للقيمة ؟ يقول ابن خلدون : " أعلم أن الكسب إنما يكون بالسعي في والاقتناء والقصد إلى التحصيل، فلا بد في الرزق من سعي وعمل، ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " (2 : 381) ويقول أيضا : " إن المفادات والمكتسبات، كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2 : 382) ويعني هنا بالمفادات والمكتسبات السلم والخدمات .

وباستقراء نصي الفقرتين المذكورتين يبين بكل وضوح أن ابن خلدون يعيد قيم المنتجات من سلع وخدمات إلى العمل البشري، ويقر بأن العنصر الأساسي لتحقيق المعاش هو العمل، وبهذا يكون ابن خلدون قد أضفى أهمية كبيرة على العمل البشري، حيث جعل مفهوم قيم الأشياء من سلع وخدمات لا تتم إلا بتدخله . ويظهر هذا بكل وضوح في عبارته التالية : " ولو في تناوله وابتغائه من وجوهه " الطبيعية ويعني هذا أن الأشياء كلها لا تأخذ قيمتها إلا بتدخل العمل البشري. فقد يبقى كثيرا منها ينفع الإنسان بدون قيمة إذا لم يتدخل العمل البشري، ومثال ذلك العسل في أشهادة، والماء سواء كان جاريا فوق الأرض أو بباطنها، و كل الفواكه المرية، و كل النباتات الطبية وغيرها مما اكتشفت قيمته بالعمل و مما هو غائب ستكتشف قيمته لاحقا ولكن بتدخل العمل .

مما سبق ذكره يتبين أن مفهوم القيمة عند ابن خلدون تتركز بشكل أساسي عن العمل، وبذلك أبرز أهمية عنصر العمل وصوره في تحديد قيم الأشياء المنتجة، وفي سابقة يقرر ابن خلدون بأن المكاسب هي قيم الأعمال، وأن الأعمال هي سبب الكسب، وكثرة الأعمال هي السبيل إلى الثروة، وسنعود إلى هذا فيما بعد . يقول ابن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (2 : 365).

ومن هنا تبرز أهمية العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية عند ابن خلدون، وهو إذ يجعل العمل هو العنصر الرئيسي للقيمة، ينتبه في هذا الوقت المبكر أربعة قرون قبل ظهور علم الاقتصاد بمفهومه الحديث أن هناك سلعا ذات قيمة للبشر ولكن لم يتدخل فيها العمل البشري، هذه السلع هي المسماة في الاقتصاد السياسي بالسلع الحرة، ولهذا نجد في عبارته الشهيرة المدللة على مفهوم القيمة عنده فيقول : " إن المفادات أو المكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية " (2 : 382) فهو يستعمل أداة التخيير "أو" وبهذا لا يجزم بأن كل السلع التي لها قيمة استعمالية إنما هي نتيجة الأعمال البشرية، غير أن استعماله لكلمة " أكثرها" يبين أن ابن خلدون أدرك بأن هذه السلع التي لها قيمة استعمالية دون أن يلمسها العمل البشري هي قليلة مثل أشعة الشمس، والهواء الذي نتنفسه، والأشعة غير المرئية التي تحمي الإنسان من كثير من الأمراض، وغيرها من الغازات والأغلفة الكونية التي تحفظ التوازن البيئي الذي سهل العيش على هذه الأرض وجعل الحياة عليها ممكنة إن إكتشاف ابن خلدون الذي يتعرف فيها على السلع الحرة وهي قليلة كما عرفنا يعززه ويدعمه ملاحظته الدقيقة لنوع من الأشياء التي لا تدخل للإنسان في وجودها، ولكن لا يمكن الانتفاع بها إلا بتدخل العمل البشري وفي هذا يقول ابن خلدون : " وقد يحصل له ذلك بغير سعي كالمطر المصلح للزراعة وأمثاله، إلا أنها إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها فتكون تلك المكاسب معاشا " (2 : 679).

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون يعتبر السلع الحرة ليست من عمل الإنسان، غير أنها تعتبر مساعدة له على إظهار القيم الاستعمالية للأشياء التي تدخل في مساعدتها، فإذا لم تقتزن يعمل الإنسان الذي يجعلها مفيدة فإنها تبقى قليلة الجدوى إن لم نقل معدومة في خلق قيم يستفاد بها.

إن هذا المفهوم لقيمة الأشياء التي لا يتدخل فيها العمل الإنساني بشكل مباشر لإبراز منافعها والاستفادة من قيمها الاستعمالية، أو تلك التي تكون معينة كما يقول ابن خلدون ناقشه بعد أربعة قرون رواد المدرسة الكلاسيكية والإشترائية وغيرهم وذلك في مجال تفرقتهم بين القيم التي تنتج عن العمل البشري ومن القيم التي تأتي من الطبيعة، وقد أطلقوا على هذه الأخيرة تسمية " السلع الحرة " .

إن الحاجات الاقتصادية عند ابن خلدون تستمد قيمتها بشكل رئيسي من مدى ما بذل فيها من جهد، ومن عمل.

يقول ابن خلدون : " لا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول (2 : 365) ويعتبر ابن خلدون بهذا سابقا النظريات القيمة التي تركز على العمل لمئات السنين، بالأخص نظريات رواد المدرسة الكلاسيكية وأولهم السير وليام بيبي وسميت ريكادوا وغيرهم ممن جاؤوا بعدهم .

إن ابن خلدون لا يقف عند هذا المفهوم للقيمة، بل يذهب إلى أن مصدر الكسب (الثروة) إنما أساسه العمل الإنساني، ويقرر بأن زيادة الأعمال البشرية سوف تزيد من قيمته مما يزيد من الكسب (الثروة) .

يقول ابن خلدون : " إن المكاسب إنما هي قيم الأعمال، فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمتها بينهم فكثرت مكاسبهم، فتنفق أسواق الأعمال والصناعات ويكثر دخل المصدر وخرجه، ويحصل اليسار لمنتحلي ذلك من قبل أعمالهم، ومضى زاد العمران زادت الأعمال ثانية ثم زاد الترف تبعاً للكسب، وزادت عوائده وحاجاته، واستنبطت الصناعات فزادت قيمتها وتضاعف الكسب في المدينة لذلك ثانية، ونفقت الأعمال بما أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية والثالثة " . (2 : 344)

هكذا يتضح بأن مفهوم القيمة عند ابن خلدون أساسه العمل الإنساني وهو بذلك يؤدي إلى ثراء الأمم وغناها، فتقدم الدول في نظره هو ما تراكم من قيم الأعمال الإنسانية، وهو ليس بالضرورة ما قد يتواجد فيها من المعادن الثمينة مثل الذهب والفضة، وبذلك يكون قد سبق آدم سميث في الإقرار بأن ثروة الأمم إنما أساسها قيم الأعمال البشرية .

2.1 : أنواع القيمة عند ابن خلدون

إذا كان موضوع القيمة بصفة عامة يحتل مكانة بارزة في الاقتصاد السياسي فإن البحث في أنواع القيمة لا يقل أهمية عن ذلك، لأن معرفة هذه الأنواع من شأنه أن يسهل فهم القيمة، وإذا كان هذا التقسيم قد طرح كثيراً من المناقشات بين المفكرين الغربيين في بداية القرن السادس عشر التجاريين منهم والطبيعيين فابن خلدون في القرن الرابع عشر قد استطاع أن يتنبه إلى هذه المسألة الاقتصادية الهامة، فاستطاع أن يفرق بين نوعين من القيم تميز الطبيعة المزروعة للبطانة والتي تترجم في خاصيتين هما القيمة الاستعمالية والقيمة التبادلية، وستناولهما فيما يلي :

1 . 2 . 1 : القيمة الاستعمالية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتني إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا " (2 : 360-361) .

ويلاحظ هنا أن مصطلح الرزق عند ابن خلدون يذهب إلى ما اصطلاح عليه في أدبيات الاقتصاد " بالقيمة الاستعمالية " ويوضح ابن خلدون شروط القيمة الاستعمالية بشكل منفرد النظير، ويمكن إيجاز هذه الشروط في النقاط التالية :

أ- الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها :

ويتبين من هذا الشرط أن السلعة إذا لم تكن حاصلة بالفعل عند الفرد، وقادر على التصرف فيها لا يمكن أن تشكل قيمة استعمالية، فمجرد الرغبة في الشئ والدافع إلى إقتنائه لا يمثل بأي حال من الأحوال قيمة استعمالية إلا إذا تم التحصيل الفعلي وحوزة الطلب المرغوب فيه .

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

ب- حصول المنفعة من الشيء المقتني :

إن الشرط الأول لا يكفي لوحده لتحقيق قيمة الإستعمال، فقد نحصل على السلعة ونقتنيها، ولكن قد لا يكون الغرض منه هو الإستعمال الشخصي المباشر، ولذلك يضع ابن خلدون شرطا مكملا وضروريا بالنسبة للشرط الأول وهو حصول المنفعة وعودتها على العبد أي إستعمالها الفعلي من طرف المقتني .

ج- قدرة المنفعة على اشباع حاجة وتحقيق مصلحة خاصة

ويعتبر هذا الشرط أساسيا للقيمة الاستعمالية للسلعة أو الخدمة، والذي يدين بأن ذلك الشيء الذي يحصل عليه الإنسان فعليا ويحمل منفعة، قادر أن يشبع حاجة من حاجات مقتنية ويقدم له مصلحة خاصة تكون بحسب الشيء المقتني .

إن توفر هذه الشروط الثلاثة يجعل من نظرية ابن خلدون للقيمة الاستعمالية نظرة مستوفية .

ومما سبق يتبين بأن لفظة " الرزق " المرادفة للقيمة الاستعمالية في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة، هو ما يحصل عليه الفرد ويخصه لإشباع حاجاته المباشرة، وتحقيق مصلحته الخاصة .

إن هذه القيمة، قيمة إستعمال الشيء لا تتأتى إلا بالعمل الإنساني ففي رأي ابن خلدون وبالرغم بأن هذه السلعة أو الخدمة موجهة للإستعمال المباشر إلا أن العمل الإنساني لا بد أن يلامسها وإلا اعتبرت في نظرتهم من الأمور غير الطبيعية .

يقول ابن خلدون : " فلا بد في الرزق من سعي وعمل " (2 : 381) ، وبناء على هذا فإن عنصر العمل يدخل بشكل رئيسي في تحديد القيمة مهما كان نوعها .

1 . 2 . 2 : القيمة التبادلية عند ابن خلدون

يقول ابن خلدون : " ثم إن الحاصل أو المقتني إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا ... وإن لم ينتفع به في شيء من مصالحه وحاجاته فلا يسمى كسبا " (2 : 381) ويلاحظ أن النوع الثاني من الأشياء المقتناة التي ذكرها ابن خلدون في الجزء الثاني من المقولة السابقة " وإن لم يكن ...) لا يكون القصد من إقتنائها هو الإستعمال الشخصي المباشر، وإنما يقصد مبادلتها بغيرها فإنها تدخل في دائرة السلع ذات قيم الإستبدال (2 : 381)

ويمكن إيجاز شروط القيمة الإستبدالية عند ابن خلدون فيما يلي :

أ - الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها، وقد تم شرحه في القيمة الاستعمالية .

ب- عدم الانتفاع به في مصالحه وحاجاته الخاصة .

ويعني هذا الشرط أن هذه الأشياء المقتناة من سلع وخدمات لا توجه إلى الإستهلاك المباشر من طرف مالكيها، ولا تتضمن المواد التي تستعمل للإشباع الخاص .

ج - الإمتلاك سعي الفرد وقدرته

يذهب ابن خلدون في هذا الشرط اعتبار الأشياء ذات القيمة التبادلية لا بد من إمتلاكها عن طريق السعي والقدرة، وهو بذلك يؤكد مرة أخرى على أهمية العمل الإنساني في تشكيل قيم الأشياء مهما كان نوعها، وهو يعارض إدخال الدوافع الأخلاقية في القيمة، ويعارض مقولة الحصول على القيم الاستعمالية بالعدل (1 : 70)

يقول ابن خلدون : " إنما الله يرزق الغاصب والظالم والمؤمن والكافر " (2 : 365)

وهنا ينفي الحصول على منافع القيم بالطرق التي لا يدخل فيها العمل الإنساني .

ومما سبق التطرق إليه إلى أنواع القيمة عند ابن خلدون يلاحظ كل عارف ودارس للإقتصاد السياسي بشكل عام وموضوع القيمة بشكل خاص أن ابن خلدون في هذا الوقت المتقدم من الزمن، زمن علم الإقتصاد الحديث الذي عرف على رواد المدرسة الكلاسيكية ومن جاء بعدهم قد توصل وبشكل علمي ودقيق إلى المعرفة الدقيقة لقسمي القيمة قيمة الإستعمال وقيمة الإستبدال .

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

و إذا كانت قيمة الإستعمال عند ابن خلدون لا تتحقق لإبشروطها الثلاثة المذكورة سابقا وتنتهي بالإستعمال المباشر وحصول المنفعة والمصلحة، فإن قيمة الإستبدال تذهب إلى أبعد من هذا، حيث يكون مكانها الطبيعي هو السوق، وتأخذ قيمتها عند التبادل .

وقد استعمل ابن خلدون عدة مصطلحات تستعمل لتعيين التبادل، ومن أهمها البيع، المعاملة، التجارة، غير أنه استعمل بصفة أساسية للتدليل على قيمة الإستبدال " القيمة التبادلية" مصطلح العوض أو الأعض .

يقول ابن خلدون : " ... ما تحصل عليه يد هذا إمتنع عن الآخر إلا بعوض" (2 : 365) أي أن ما يمتلكه أي فرد لا ينتقل إلى أي فرد آخر إلا بمبادلتة بما لدى الطرف الآخر أي تعويضه بما يعادله من سلع وخدمات تساوي قيمتها قيمة الشئ المبادل أو العوض .

ويرجع ابن خلدون زيادة القيم التبادلية إلى التقسيم الإجتماعي للعمل، لأن الفرد لا يستطيع أن يلبي حاجاته بنفسه، فلا بد من تبادل للسلع والخدمات بين الأفراد، وهذا التبادل في رأي ابن خلدون يجب أن يتم على أساس من التكافؤ من ناحية الجهد والعمل المبذول، وهذه القيمة التبادلية للسلع، والتي تتجدد بشكل أساسي في السوق، بحيث يمكن مبادلتها بشئ غير مملوك، فهي إذن تعبر عن قيمة موضوعية تتوقف على اعتبارات خاصة بالبيئة، بصرف النظر عن قيمتها في نظر شخص معين .

ونلاحظ أن ما توصل إليه ابن خلدون في معرفته الدقيقة والموضوعية لأنواع القيمة يجعله من بين أهم المفكرين الذين تناولوا هذا التقسيم سواء في القديم أو عند رواد المدرسة الكلاسيكية. أو في عصرنا الحديث، وهذه النظرة الثاقبة عند ابن خلدون تجعلنا نعتقد بأن الفكرة إذا كانت علمية وموضوعية فإنها لا تموت بتعاقب القرون ولكنها تبقى تحمل بذور الحياة، فإذا جاء من يغذيها وينقب عنها برزت وغمت وأخذت مكانتها بين الأفكار العلمية المعاصرة .

1. 3. : محددات القيمة عند ابن خلدون

قد يعتقد الدارس لموضوع القيمة عند ابن خلدون أن محدداتها الوحيد هو العمل غير أن ذلك يعتبر المحدد الأساسي وهناك محددات أخرى يجانبه سنتعرض إليها فيما يلي :

1. 3. 1 : العمل

إن الملاحظ مما سبق ذكره في الفرعين السابقين لا شك تستنتج بأن العمل الإنساني عند ابن خلدون يعتبر المحدد الأساسي للقيمة، حيث نراه يؤكد في أكثر من موقع في مواضع المقدمة على أن السلع تستمد قيمتها من العمل الذي بذل فيها، بل في بعض المواقع توحى عباراته بأن هناك جزما بأن قيمة السلع والخدمات هي الأعمال الإنسانية (5 : 5)

يقول ابن خلدون : " اعلم أن ما توفر عمرانته من الأقطار وكثرة ساكنه، إتسعت أحوال أهله وكثرت أموالهم والسبب في ذلك كثرة الأعمال التي هي سبب الثروة " حيث يبرز لنا أهميته في العمل كوسيلة منتجة حقيقية وطبيعية .

يقول أيضا : " إذ ليس هناك إلا العمل وليس بمقصود بنفسه للقيمة، وقد يكون مع الصناعات في بعضها وغيرها مثل التجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر"

ومن هذه العبارة يتبين بأن ابن خلدون لم يجعل العمل هو المحدد الوحيد للقيمة، وإن اعتبره هو الأساسي، ولكن هناك محددات أخرى يجانب العمل قد لا ترقى إلى نفس أهمية العمل الإنساني ولكنها ضرورية في تحديد قيم الأشياء وهذا ما جاء في عبارته " ... مثل التجارة والحياكة معهما الخشب والغزل " ثم يؤكد بأن أكثر هذه المحددات هو العمل الإنساني فيقول : " إلا أن العمل فيهما أكثر "

وقد ذهب ابن خلدون إلا أن حجم القيمة يتناسب طرديا مع العمل المبذول فيها حيث يقول : " إن المكاسب هي قيم الأعمال فإذا كثرت الأعمال كثرت قيمها " (17 : 365)

وتجدر الإشارة إلا أن ابن خلدون لم يكتف بإثبات بأن العمل البشري هو المحدد الأساسي للقيمة بل استطاع أن يميز بين مفهوم أنواع العمل المحدد للقيمة، حيث فرق بين نوعين أساسيين من هذا العمل، وهما على التوالي العمل الظاهر (الحي) والعمل المخزون (المتراكم) وسنحاول أن نوضح مفهومهما عند ابن خلدون باختصار فيما يلي :

أ - العمل الظاهر

يقول ابن خلدون : " فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر، وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن، فلا بد فيه من العمل الإنساني ... وإلا لم يحصل ولم يقع به الانتفاع " (2 : 381)

ويتمثل العمل الظاهر عند ابن خلدون في ذلك النوع من العمل الذي يدخل بصفة مباشرة ويساهم في إنتاج السلعة أو الخدمة ويعبر عليه بالعبرة التالية :

" إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر " ، ويفهم من هذا التعبير الخلدوني إنه ذلك العمل الذي يمكن ملاحظته خلال العملية الانتاجية، ويكون قادرا على خلق قيمة مباشرة، وإذا أردنا التوضيح أكثر يمكن القول بأن العمل الظاهر يمكن في الصنائع أي يبذل خلال مراحل تشكيل السلعة في العملية الانتاجية .

ب - العمل المخزون

يقول ابن خلدون : " وإن كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني ... وإلا لم يحصل ولم يقع بالانتفاع " (2 : 381) .

وهنا ينتبه ابن خلدون إلا أن هناك عملا غير العمل الظاهر وهو ذلك الجهد البشري الذي يبذل في فترة زمنية سابقة للعملية الانتاجية و مخزن أو تراكم في السلع والخدمات التي قد تدخل في العمليات الانتاجية اللاحقة (3 : 110)

ويذهب ابن خلدون إلى أن الأشياء التي تراكم فيها غير الظاهر للعيان أو المستتر الذي في زمن ماضٍ معين كالحيوان والنبات والمعدن لابد أن يكون من العمل الإنساني وإلا لم يحصل ولم يقع به الانتفاع . وهذه التفرقة الدقيقة بين أنواع العمل الظاهر والمخزون الذي جاء بها ابن خلدون في القرن الرابع بقيت صحيحة وعلمية ولم يتمكن الفكر الاقتصادي المعاصر معرفتها إلا في القرن الثامن عشر، حيث أطلق آدم سميث رائد المدرسة الكلاسيكية على هذا التقسيم، مصطلح " العمل الآني، والعمل الماضي " بينما سماه ريكاردو " العمل الظاهر والعمل المتراكم " أما ماركس فقد سماه " العمل الحي والعمل الميت " . وهكذا نلاحظ من هذه التسميات المختلفة لرواد الفكر الأوروبي الرأسمالي أو الإشتراكي أنهم لم يضيفوا شيئا إلى مفهوم وتقسيم العمل عند ابن خلدون وإنما قاموا بتغيير التسميات (5 : 65) .

لقد برز في الإقتصاد الوضعي لا سيما الأوروبي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر نقاش كبير حول قيمة الأشياء، فقد ساد الاعتقاد بوجود القيمة الاستعمالية والتبادلية، ثم ظهر في الفكر الكلاسيكي اتجاه آخر يقوم على أن للسلعة قيمة استبدالية ولها منفعة، ثم تطور هذا الفكر ليعتقد أصحابه بتجريد القيمة من عنصر المنفعة، ثم ساد الاعتقاد لفترة طويلة بأن ليس للمنفعة دخل في تحديد القيمة بوجود عوامل أخرى تحدد القيمة ثم ظهر تيار فكري آخر يرى بأن المنفعة تعتبر من العناصر الأساسية المحددة لقيمة الأشياء. وغيرها من المناقشات التي انصبت في تحديد العوامل التي تحدد القيمة، كنفقات الانتاج، وتكلفة السلعة من نفقات النقل والضرائب والمكوس والتوقعات وما إليها .

وبعد أن ناقشنا المحدد الرئيسي للقيمة وهو العمل الإنساني في نظر ابن خلدون نحاول أن نتطرق إلى بقية المحددات التي دارت حولها المناقشات الفكرية لتتعرف عن رأي ابن خلدون فيها .

لقد عظم ابن خلدون دور العمل في حياة الإنسان، ولم يعتبره ضروريا من أجل إشباع الحاجات المتنامية للإنسان فحسب، ولكن اعتبره حاجة ذاتية يثبت بها الإنسان ذاته، فلا قيمة للإنسان ذاته إذا لم يكن لديه عمل.

يقول ابن خلدون : " وأما ما دون ذلك من الخدمة فسببها أن أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته ويكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق التنعم والترف فيتخذ من يتولى ذلك يقطعه عليه أجرا من ماله، وهذه الحالة غير محمودة بحسب الرجولية الطبيعية للإنسان (2 : 360)

1 . 3 . 2 : المنفعة

يقول ابن خلدون : " إنه "القوت" لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " (2 : 363)

ويقول أيضا : " واعتبر غاشية الإنسان بغاشية العجم من الحيوانات وفتات الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " (2 : 362) .

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون عرف أن للمنفعة دورا كبيرا في تحديد قيم الأشياء، بل نعتقد أن ابن خلدون قد اكتشف قانون تناقص المنفعة وتعرف عليه ففي عبارة : " لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " وهذا يدل على أنه كلما زاد المعروض من الشيء كلما أدى إلى إنخفاض قيمته إلى أن يبذل بدون ثمن ولا عوض أي لا يبادل بأي سلعة أخرى وهكذا تصل المنفعة الحدية لقيمة هذا الشيء إلى الإنعدام أي تساوي صفرا .

ثم نلاحظ في العبارة الأخرى : " وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " .

فزيادة السلع وما إليها تؤدي إلى الاستغناء عنها أي تقل منفعتها لوجود أمثالها لديهم حتى تصل إلى درجة الإستهلاك أي ينعدم عنها قيمة الشيء لذهاب منفعتها لوجود أمثالها لديهم .

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون عرف أن للمنفعة دورا كبيرا في تحديد قيم الأشياء، بل نعتقد أن ابن خلدون قد اكتشف قانون تناقص المنفعة وتعرف عليه ففي عبارة : " لولا تخزين الناس له خوفا من حدوث نقص في إنتاجه مستقبلا لبذل دون ثمن ولا عوض " وهذا يدل على أنه كلما زاد المعروض من الشيء كلما أدى إلى إنخفاض قيمته إلى أن يبذل بدون ثمن ولا عوض أي لا يبادل بأي سلعة أخرى وهكذا تصل المنفعة الحدية لقيمة هذا الشيء إلى الإنعدام أي تساوي صفرا .

ثم نلاحظ في العبارة الأخرى : " وسهولتها على من يبذلها لاستغنائهم عنها في الأكثر لوجود أمثالها لديهم " .

فزيادة السلع وما إليها تؤدي إلى الإستهلاك أي ينعدم عنها قيمة الشيء لذهاب منفعتها لوجود أمثالها لديهم حتى تصل إلى درجة الإستهلاك أي ينعدم عنها قيمة الشيء لذهاب منفعتها لوجود أمثالها لديهم .

ويتبين من هذا أن ابن خلدون يعتبر المنفعة من محددات السلعة فإذا زادت المنفعة إلى الشيء ورغب فيه الناس ارتفعت قيمته، والعكس صحيح، ولهذا ولتدعيم هذا الفرض يقدم ابن خلدون مثلا رائعا يبرر دخول عامل المنفعة لمحدد من محددات القيمة .

يقول ابن خلدون : " ... وذلك أن حكمة الله في الحجر - الذهب والفضة - ودورها أهمها قيم لمكاسب الناس وتمولاتهم ، فلو حصل عليهما بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من إقتنائهما على شيء " (2 : 360)

إن الوصول إلى صنع الذهب والفضة اللذين يعتبران العنصر المقبول والشائع بين الناس في التبادل يؤدي إلى تناقص المنفعة في إقتنائهما حتى تصل هذه المنفعة إلى الحد الذي يعرض فيه الناس على مبادلتها لإنعدام المنفعة

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

وهذا يكون ابن خلدون قد دلل بكل علمية وموضوعية على أن المنفعة هي محددات القيمة، بل تراه من خلال هذا الطرح قد توصل إلى قانون تناقص المنافع أو سمي في الأدبيات الاقتصادية بقانون تناقص المنفعة، فهو بذلك يبين بكل موضوع أن رابطة قوية بين الحاجة والمنفعة، فحاجة الناس إلى السلع والخدمات تكسبه منفعة تؤدي إلى زيادة قيمة الشيء، وكلما كانت الحاجة إلى السلع والخدمات قليلة أو مفقودة كلما أدى ذلك إلى فقدان جزء من قيمته، ويبقى في تناقص إلى أن تنعدم الحاجة فيفقد الشيء قيمته عندها نقول أن المنفعة تساوي الصفر، وهذا ما دلت عليه عبارة ابن خلدون: " لبدل دون ثمن ولا عوض " .

1 . 3 . 3 : تكاليف الانتاج

يؤكد ابن خلدون بأن نفقات الانتاج تؤثر في تحديد قيم الأشياء، وقد لاحظ ابن خلدون هذه الظاهرة في الزراعة حيث تتأثر قيمة المزروعات بنفقات الانتاج التي تدخل في الزراعة وقد ترتفع قيمة المنتوجات الزراعية إذا ما أدخلت نفقات جديدة على عملية الانتاج الزراعي .

يقول ابن خلدون: " لما ألجأهم النصارى إلى سيف البحر وبلاد المتوعدة الحبيثة الزراعة النكدة النبات وملكوا عليهم الأرض الزاكية والبلد الطيب فاجتاحوا إلى علاج المزارع والقدن لإصلاح تباها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد من الزبل وغيره لها مؤونة، وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم " (2 : 328) .

إن هذه النظرة التي استنتجها ابن خلدون من ملاحظة ظاهرة تغير في قيم المنتوجات الزراعية بين بلاد المغرب وبلاد الأندلس عندما انتصر عليهم الإسبان وأرغموهم على التقهقر إلى الجبال والأراضي الأقل خصوبة، ولهذا فقد ارتفعت قيم المنتوجات الزراعية على ما كانت عليه في السابق حيث الأراضي الخصبة والمناخ الملائم وعن مثيلتها في بلاد المغرب والسبب في هذا الإرتفاع هو تلك الجهود والأعمال الإنسانية الإضافية التي دخلت بشكل أكبر من السابق في إصلاح القدن ونباها، وإيصال المياه إليها ومد الجسور وما إليها مما تتطلبه الأرض الوعرة، ضف إلى ذلك قلة خصوبة التربة، مما اضطر أهلها إلى إضافة المواد المخصبة لها مثل الزبل وما يدخل في شاكلته .

هذه النفقات الزائدة أدخلت في تحديد قيم المنتوجات الزراعية الأمر الذي أدى إلى إرتفاع قيمها .

1 . 3 . 4 : زيادة الضرائب، واشتغال السلطان بالتجارة

إن القيمة كما تتأثر بنفقات الانتاج فإنها تتأثر كذلك بنفقات أخرى مثل الضرائب المتنوعة التي تفرض من قبل الدولة على الأفراد، كما أن القيمة تتأثر كذلك بعوامل أخرى مثل إنتحال السلطان للتجارة وسنحاول أن نبين هذين المحددين بإختصار فيما يلي :

أ - زيادة الضرائب

يقول ابن خلدون: " وقد يدخل أيضا في قيمة الأقوات ما يفرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الأسواق " (2 : 364)

ويبين من هذه العبارة أن الضريبة تمارس أثرها على القيمة فتجعلها ترتفع، لأن الباعة يلجأون إلى تحميل المشتري عبء هذه الضريبة، وقد تكون في أكثر الأوقات تحميلا كليا، وهذا ما يسمى في الأدبيات الاقتصادية المعاصرة بنقل العبء الضريبي .

يقول ابن خلدون: " إن المصر الكثير العمران يختص بالغلاء في أسواق وأسعار حاجاته، ثم تزيدها المكوس غلاء ... والمكوس تعود إلى البياعات بالغلاء لأن السوق والتجار كلهم يحسبون على سلعهم وبضائعهم جميع ما ينفقون حتى في مؤونة أنفسهم فيكون المكس لذلك داخلا في قيم المبيعات وأثمانها " (28) إن ابن خلدون قد ذهب في هذه العبارة إلى تعيين وبكل وضوح المحددات التي تدخل بجانب العمل الإنساني في القيمة، فهو يبين من جهة بأن قيم الأشياء ترتفع بازدياد العمران أي التقدم الحضاري ثم يبين محددات آخر يزيد في إرتفاع قيم الأشياء وهي المكوس (الضرائب)، ثم يبين كيف أن التجار لا يتحملون شيئا من الأعباء الضريبية .

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

بل ينقلوها على قيم السلع والبضائع، حتى تكاليفهم الشخصية ينقلوها أيضا فترتفع قيم الأشياء تبعاً لذلك . ويعتبر هذا الربط بين الضريبة والنفقة بعداً جديداً يضيفه ابن خلدون إلى الدراسات الاقتصادية في ذلك الزمن المبكر، ومعنى هذا أن النفقة على مؤونة التاجر تدخل في تحديد قيمة السلعة مثل دخول تكلفة العمل وغيره، وقد يكون هذا الأمر هو المتعارف عليه في الأدبيات الاقتصادية من أن أثر الضريبة على قيم الأشياء يتوقف على مدى قدرة البائع على تحميلها للمشتري، وذلك يتوقف على مقدار مرونة الطلب الذي يتحدد بدوره من خلال عوامل منها مدى ضرورة السلعة. (5: 76)

ب - ممارسة الدولة للتجارة

يناقش ابن خلدون ابتعاد الدولة عن مهامها الرئيسية في إدارة شؤون البلاد وتسييرها ودخولها السوق بجانب التجار لممارسة التجارة يؤدي إلى تذبذب كبير في قيم الأشياء ويبعدها عن كثيرها على القوام والتوازن الذي هو أساس التبادل من الناس، فمرة قد يؤثر هذا الدخول إلى السوق إلى إنخفاض قيم البضائع والسلع وذلك عندما تنعدم المنافسة لسلع السلطان وبضائعه نتيجة إحتكاره للسوق وعدم قدرة بقية التجار لمنافسته نتيجة إنخفاض قيم سلع وبضائع السلطان من جهة والخوف من مقارنته من جهة أخرى. وهذا يؤدي إلى إنخفاض قيم السلع والبضائع التي يحوزة بقية التجار .

يقول ابن خلدون : " التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية " (2 : 381)

وهذا يضطر التجار والفلاحين إلى بيع سلعهم على كساد من الأسواق بأجس ثمن وربما يتكرر ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأسماله فيقع عند سوقه، لأن إحتكار السلطان الذي يمثل الدولة يفقد كل مبادرة وكل تحكم في الأسعار .

يقول ابن خلدون : " إن تدخل السلطان يوقف كل مظاهر التوازن في السوق، لأن الرعايا متقاربون في اليسار، والمزاحمة بعضهم بعضاً فتنتهي إلى غاية موجودهم أو تقرب، وإذا رافقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيراً منهم فلا يكاد أحد يحصل على عرضه (2 : 360)

أما التذبذب الذي يحصل في المرة الثانية فيكون بارتفاع قيم السلع والبضائع نتيجة سيطرة السلطان على السوق في عملية الشراء حيث يعمد إلى شراء السلع والبضائع من أربابها بأسعار زهيدة ثم يبيعها بالثمن الذي يفرضونه هم " أي الحكام " .

يقول ابن خلدون : " وقد تنتهي الحال بمؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الأمراء والمتغلبين في البلدان أنهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلادهم، ويفرضون لشراء ذلك ما يشاؤون، ويبيعونها في وقت لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضونه من الثمن " .

وهكذا تنتفع قيم البضائع والسلع في السوق نتيجة هذه التصرفات من الأجراء والمتغلبين في البلدان، وبهذا التحليل الدقيق يكون ابن خلدون قد تبحر في محددات القيمة، بشكل غير مسبوق .

1. 3. 5 : تكاليف النقل والآفات السماوية

اعتبر ابن خلدون أن تكاليف النقل والآفات السماوية تدخل بشكل أو بآخر في محددات القيمة وستعرض إليها فيما يلي :

أ - تكاليف النقل :

بالرغم بأن وسائل النقل في عهد ابن خلدون كانت بدائية إذا ما قورنت بالوسائل التي ظهرت في العصر الحديث إلا أنها كانت ضرورية لعصرها ذلك، إذ كانت تلعب دوراً هاماً في توفير السلع والبضائع في الأسواق التي تفتقد إليها، ولا يخفى على عاقل أن هذا الدور الهام لم يكن بالأمر اليسير كما هو الحال اليوم، ولكنه كان

تابع للمحاضرة الثالثة - نظرية القيمة عند عبد الرحمن بن خلدون

شاقا ومتعبا، وفيه تدوم الرحلة أكثر أو أقل من شهر حسب تباعد نقاط التبادل أو الأسواق، وقد توصل ابن خلدون إلى تفسير هذه الظاهرة حيث لاحظ بأن ارتفاع تكاليف النقل وزيادة مخاطر الطريق تؤدي إلى الزيادة في قيم السلع والبضائع، وقد علل ابن خلدون السبب إلى زيادة المخاطرة، فكلما كانت درجة المخاطرة كبيرة، كلما أدت إلى ارتفاع قيم السلع المنقولة .

يقول ابن خلدون : " وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو في شدة الخطر في الطرقات يكون أكثر فائدة للتجار وأعظم ربحا، وأكفل بحالة الأسواق، لأن السلعة المنقولة حيث تكون قليلة معوزة ... وإذا قلت وعزت غلت أثمانها، وأما إذا كان البلد قريب المسافة. والطرق سابل بالأمن، فإنه حيث يكثر ناقلوها، فتكثر وترخص أثمانها " (2 : 396)

ويتبين من هذا القول أن ابن خلدون ربط زيادة ونقصان قيم السلع والبضائع في هذه المحددة بنقطتين أساسيتين، أولهما خطورة الطريق وبعد وقرب الأسواق .

ب - الآفات السماوية :

الآفات السماوية التي ذكرها ابن خلدون في اعتقادنا هي تلك الكوارث الطبيعية التي تحدث قضاء وقدر، وليس للإنسان يد في حدوثها، وهذه الكوارث تؤدي إلى حدوث كثيرا من الأضرار سواء بالمنتجين أو التجار، وهذه الكوارث تمثل الفيضانات والحرائق والزلازل والبراكين وما إليها من ظهور أمراض في النبات والحيوان فيهلكه، وغيرها من الآفات كالجراد والجفاف وما إليهما ...

يقول ابن خلدون : " فتفضل الأقوات عند أهل المصر من غير شك فترخص أسعارها في الغالب إلا ما قد يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية " (2 : 363)

ويتبين من هذه العبارة الخلدونية أن هذا المحدد هو دوري وليس غالبا في تحديد قيمة الأشياء إذ أن هذه الآفات لا تظهر بصفة دائمة ومستمرة .